مأدبة الله

روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في القرآن: "هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ"(١).

•••

الغريب:

تزيغ: تحيد وتميل وتروغ. **تلتبس:** تختلط.

يخلَق: يبلى ويتقادم، يقال ثوبٌ خلَقٌ إذا كان قديماً باليا. **الرد:** الترداد والتكرار.

•••

البيان:

لم تزل كتب العلماء والأئمة تزخر بنقل هذا الحديث المشهور، وهذا الحديث -وإن لم يصح- لا يتمارى اثنان على حُسن ما فيه من الألفاظ المؤنقة والمعاني المشرقة في وصف كتاب الله سبحانه، والأوصافُ المذكورة فيه تتسنَّم ذرى أوصاف القرآن وتتربع على عرشها.

وقد اجتمع في هذا الحديث وصف القرآن بصفاتٍ ثلاثٍ لا يتم النعيم إلا بها: (الحبل المتين)، و(الذكر الحكيم)، و(الصراط المستقيم)، فأما وصفه بالحبل المتين فإشارةٌ إلى ما يوثِّقه من عرى الصلة بين العبد وربه، وأما وصفه بالذكر الحكيم فتنبيهٌ على ما فيه من تمام العلم المتضمن الذكر الحق والحكمة البالغة، ووصفه بالصراط المستقيم فيه دلالةٌ على كمال العمل المتضمن الاستقامة بالأقوال والأفعال والنيات.

فاجتمع في هذه الأوصاف الثلاثة: شدة الاتصال بالله، وتمام العلم بدينه، وكمال العمل بشريعته، فالأول يحصل به الأنس والطمأنينة وسكون القلب وراحته فلا يصيبه الاضطراب والقلق، والثاني يحصل به الاهتداء ووضوح الطريق وسداد الفكر فلا تعرض له الحيرة والضياع، والثالث يحصل به حقيقة التقوى والإقبال على الطاعة والبعد عن المعصية فلا يدب له الفتور والكسل والانقطاع، **وهذه الثلاثة جماع النعيم: قلبٌ مطمئن، وعلمٌ مستقر، وعملٌ دائم.**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠٤) والترمذي (٢٩٠٦) وغيرهما بأطول من هذا. وضعفه جماعةٌ من أهل العلم.

وقوله (هو الذي لا تزيغ به الأهواء) فيه معنى نفيس، وذلك أن من عادة الإنسان تقلُّب أهوائه وتغيُّر أمزجته تبعاً لاختلاف أحواله وتصرف شؤونه، فإذا تمسك العبد بكتاب الله سبحانه لم يكد يفلت منه زمام أمره، فصاحب القرآن معه لجامٌ يحكِمُ به قياد نفسه حتى لا تسترسل مع هواها فتزيغ.

وأما قوله: (ولا تلتبس به الألسنة) فهذا وصف عجيب لا يشاركه فيه كتاب، فقد ذكر العلماء في معناه أن القرآن تتلوه جميع الألسنة فتذل به ولا يتعسر عليها، حتى الألسنة التي لم تُفتَق بالعربية تنطلق بالقرآن؛ ولهذا تجد كثيراً من الأعاجم يقرؤون القرآن قراءةً مجودةً متقنةً على أن الواحد منهم لا يستطيع أن يتكلم بالعربية كلمةً واحدة!

ثم انظر إلى قوله (لا يشبع منه العلماء) وقارن ذلك بالقصص المشهورة في سير الأعلام وكتب التراجم من انقطاع العلماء في أواخر أيامهم إلى القرآن وتركهم جميع ما عداه، وكأنما يصل العالم في آخر حياته إلى مرحلةٍ يرى أنه شبع من كل العلوم أو انصرفَت عنه الشهوة إليها على أقل تقدير، إلا القرآن العظيم فإنه يجد فيه المعين الذي لا ينضب والمورد الذي لا ينقطع، فمهما استزاد منه لم يروَ مما فيه ولم يكتف بما أخذ منه.

وهذا شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله الذي اشتغل بالتفسير وفجَّر ينابيع العلوم من القرآن فلا يكاد يخلي المسألة الواحدة من سياق عدة آياتٍ فيها، ولو أراد أحدٌ أن يجرِّد الاستدلال بالقرآن من كتبه لخرج من المجلدات بوقرٍ أو وقرين، وقال عنه تلميذه الحافظ الذهبي: (وأمَّا التفسير فمُسلَّم إليه، وله مِن استحضار الآيات من القرآن وقتَ إقامة الدليل بها على المسألة قوةٌ عجيبة)= لما تأخر به العمر فكان في آخر آيامه قال: **(ندمتُ على تضييع أوقاتي في غيرِ معاني القرآن)!**

وأما قوله (ولا يخلَقُ بكثرة الرد) أي لا يدبُّ إليه البِلى والتقادم مع كثرة التكرار والترداد، فليس هو مثل كلام الناس الذي إن كررتَه صار مُهَلهَلاً ممجوجاً تملُّه الأسماع، أما القرآن فليس من هذا الشأن، بل أبلغ من ذلك أن القرآن لا يقتصر التكرار فيه على عدم الإملال وإنما يتجاوز ذلك إلى أن يزيد حُسنه ويشعَّ رونقُه وتظهَر أسراره وتبدو فرائده **(فهو المُضاعَفُ حُسنُه إن كُرِّرا)**؛ لأنه انطوى على معانٍ حسانٍ محكمةٍ جامعةٍ لا يُتوصَّل إليها بالنظر القريب المبتدأ، وإنما يتطلب قدراً زائداً من التأمل والتكرار والترداد.

وإذا كان الإمام الشافعي يقول: **(ما نظرتُ في موطأ مالكٍ إلا ازددتُ فقهاً)**، وكرر المزني رسالة الشافعي سبعين مرة، وذكر النووي أنه قرأ الوسيط للغزالي أربعمئة مرة، وكرر ابن عيسى الأندلسي مختصر ابن عبد الحكم خمسمئة مرة، فما زال كل واحدٍ منهم يقول إنه ازداد علماً بنظره ذلك، **فكيف بكتاب الله سبحانه وتعالى الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبير؟!**

ولهذا تلاه الوصف الآخر المكمل له: (ولا تنقضي عجائبه)، ولك أن تدير طرفك في أضخم مكتبةٍ عربيةٍ تعرفها متصفحاً بعينك مجلدات تفسير القرآن، فإنك إذا نظرت إلى هذا الكم الهائل من الكتب التي خطتها يراع حذاق الأئمة وكبار العلماء وأذكياء التاريخ.. ثم إذا قرأت لأئمة التفسير من المتأخرين أمثال العلامة ابن سعدي والطاهر بن عاشور والأمين الشنقيطي والعلامة ابن عثيمين ورأيت ما في كتبهم من الزيادات التي لم يضمها كتابٌ قبل ذلك= وقفت على شيءٍ من حقيقة هذه العجائب التي لا تنقضي.

فهذه الأوصاف الجليلة المجتمعة في هذا الحديث فيها من أصول المعاني التي يوصف بها القرآن طرف واسع، وربما لو أراد أحدٌ أن يصف القرآن ما وجد من المعاني الزاهية المكسوة بالألفاظ البهيَّة ما يأتي على نحو هذه الصورة البليغة.

ونسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا. آمين.

.